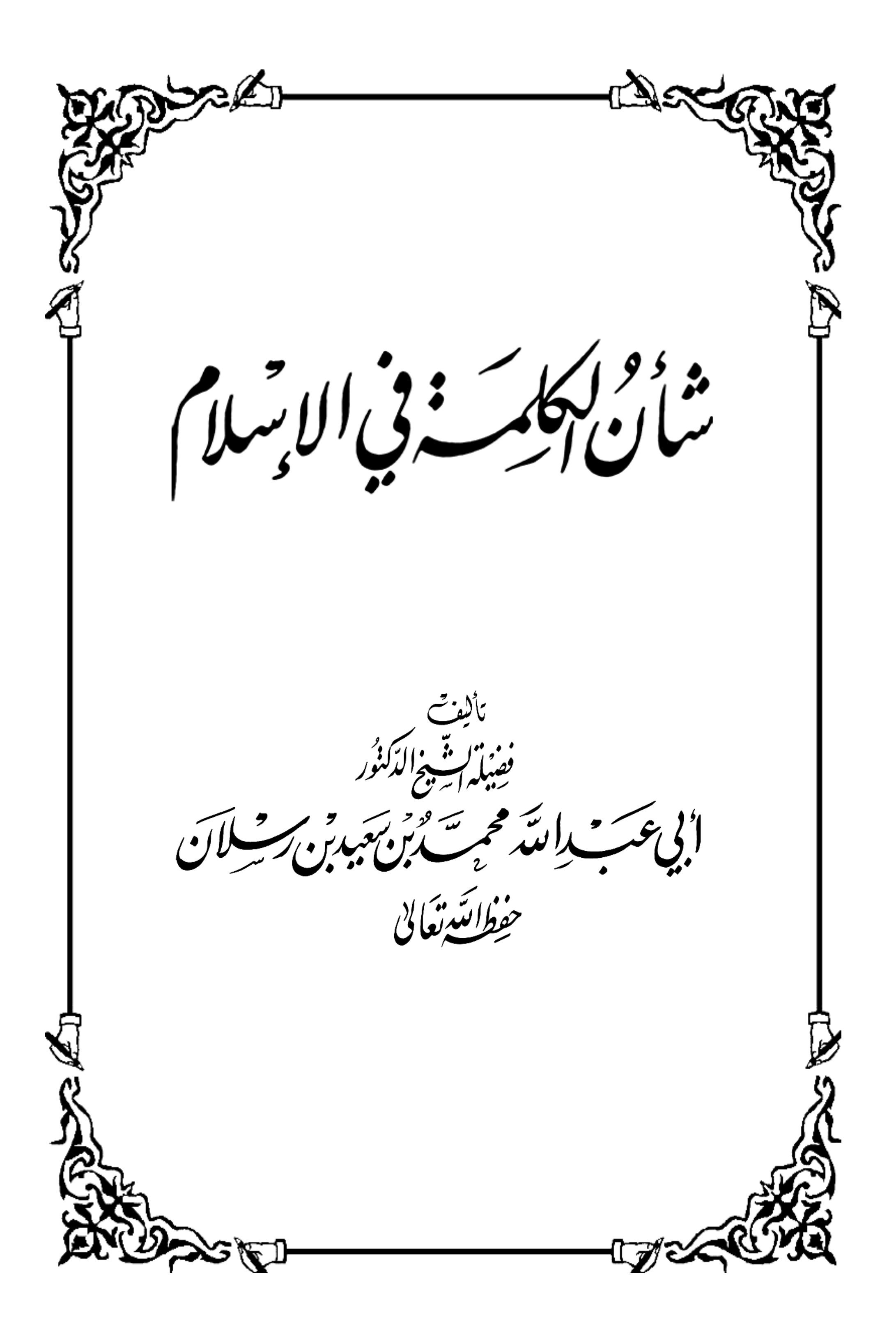


شأن الكلمة في الإسلام

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان

حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ، وأَشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أحسن الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

أَمَّا بعدُ:

فقد ميَّز الله -سبحانه- الإنسانَ بالبيانِ، ومنحه نعمةَ الإبانةِ، فغدا بفضلِ ربِّه مُفصِحًا مُبينًا.

وبالبيانِ خرجَ الإنسانُ من حدِّ البهيمةِ العجماءِ إلى حدِّ الإنسانِ الناطقِ المبينِ، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

ولَـمَّا كانت (الكلمةُ) حَجَرَ الزاوية في ذلك البيانِ، كان حَظُّهَا من الفضيلة إن حَسُنَت فَسَمَت، على قَدرِ نصيبها من الرذيلةِ إن سَاءَت فَتَرَدَّت، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوَانِ الله تَعَالَى، مَا يُلقِي لَهَا بَالاً، يرَفَعُهُ**

الله بِهَا دَرَجَاتٍ، وإنَّ العَبدَ ليَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخطِ الله تَعَالَى، لا يُلقِي لَهَا بَالاً، يَهوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» رواه البخاري.

(والكلمةُ) قد تُطلقُ ويُرادُ بها اللفظُ الموضوعُ لمعنًى مفردٍ، وقد يُقصدُ بها الكلامُ؛ كقولهم في (لا إله إلا الله): كلمة الإخلاصِ.

وكقولِ النبيِّ ﷺ: «**أَفضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: ألاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا الله بَاطِلٌ**». رواه مسلم.

والمقصودُ هنا هو (الكلمةُ) المرادُ بها اللفظُ الموضوعُ لمعنًى مفردٍ، (والكلمةُ) المرادُ بها الكلامُ؛ كلُّ أولئك مقصودٌ.

والكلامُ الذي يدلُّ عليه (شاهدُ الحالِ) -وإن لـم يلفظ به لسانٌ- داخلٌ في مرادِنَا أيضًا، على حدِّ قولِ الشاعرِ:

أشَـارَتْ بِطَـرْفِ العَينِ خِـيفَةَ أهلِهَا ... إشَــارَةَ مَحْــزُونٍ وَلَــم تَــتَـكَـلَّـمِ

فَأيْقَـنْتُ أنّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ: مَرْحَـبًا ... وَأهــلاً وَسَــهلاً بِالْحَبِــيبِ الْمُتَــيَّمِ

بل إنَّ (الكلامَ) المضمرَ الذي يُكنُّهُ الفؤادُ، ولا تُبديه الجوارحُ، ممَّا هو مَعنِيٌّ فيما نحاوله من بيانِ شأنِ (الكلمة)، ذلك (الكلامُ) الذي عناه مَن قالَ:

إنَّ الكَــلامَ لَفِــي الفُــؤَادِ وَإنـمَــا ... جُعِـل اللسَانُ علَـىٰ الفُـؤَادِ دَلِـيلاً

(فالكلمةُ) إنَّما تَصدرُ من قائلها مُلَوَّنَةً بألوانِ باطنِهِ، مُبينةً عن ذاتِ نفسِهِ ودخيلةِ قلبهِ، ولو أنَّنا جرينا على سَنَنِ البداهةِ ليمَّمنا وجوهنا شَطْرَ (القلبِ) لا شَطْرَ (اللسانِ)، وألقينا على بابِهِ رحالنا، ثمَّ قَرَّرنا في تسليمٍ أنَّه: إن كان القلبُ صالحًا فقد صلحت (الكلمةُ)، وإن كان طالحًا فقد فسدت (الكلمةُ)؛ فصلاحُ (الكلمةِ) وفسادُها، فرعُ صلاحِ القلبِ وفسادِهِ، سنَّة الله ولن تجد لسنَّةِ الله تبديلاً.

والعَلاقَةُ بين (أَدبِ النَّفسِ) و(أدبِ اللَّفظِ) أوثقُ من أن يُنَبَّه عليها أو يشارَ إليها،

وما من سوءِ أدبٍ في اللفظِ إلا والنفسُ منبعُهُ ومَحطُّهُ، وفيها مَبَاءَتُهُ وبُؤرَتُهُ، وما أجملَ وأصدقَ قولَ مَن قال: «إنَّ نَفْسَ الإنِسَانِ إذَا اتَّسَخَتْ، كَانَ كَلامُهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى أن يُغْسَلَ بالمَاءِ والصَّابُونِ!».

وواضحٌ أنِّي أعني (بالكلمة) أمرًا تكمنُ وراءه الإرادةُ والخُلُقُ وأثرُ الدِّين جميعًا، ومَن ظنَّ أنَّ كلامًا يمكنُ ألا يدلَّ على معنًى مُستكِنٍّ في النفسِ، مُتَوَارٍ بين الحنايا، فقد عنى مستحيلاً وقصدَ عَدَمًا، فحتَّى أولئك الذين يعاقرون (أمَّ الكبائر) ويُصيبهم الخُمَارُ، يَهذُونَ بما في نفوسهم، ويُهَرِّفُون بما يعرفون لا بما لا يعرفون، بمعنى أنَّهم إنَّما يُعَبِّرون عن خيالاتِهم وإن كانت فاسقةً، ويُعرِبون عن خواطرِهم وإن كانت ماجنةً، وهذه وتلك في النهاية خيالاتُهم هم، وخواطرهم هم.

وفرقٌ عظيمٌ بين ما أقصد من دلالة الكلامِ على الباطنِ في كلِّ حينٍ وحالٍ من غفلةٍ وانتباهٍ، وسُكرٍ وصَحوٍ، فرقٌ بين ما أريد من تقرير ذلك، وسقوطِ المُجَازَاةِ عن السَّاهِي ومَن كان في حُكمِهِ على ما هو مُقَرَّرٌ في مواضعِهِ.

كأنِّي أريدُ أن أقولَ: أقصدُ (بالكَلِمَةِ): الإبانَة عن موقفِ إنسانٍ. وأقصدُ (بالكلمةِ): الإفصاحَ عن خفايا نفسٍ تُظهر الكلمةُ ما خَفي فيها، وما استقرَّ بها. وأقصدُ(بالكلمةِ): العنوانَ الذي تندرجُ تحته مواقف المتكلِّمِ، فتظهر فيها مكنوناتُ صدرِهِ، ومغيَّباتُ ضميره.

أقصدُ (بالكَلِمَةِ): كلَّ ما من شأنِهِ أن يُعبِّر عن ذات المتكلِّمِ، وأن يُعرِبَ عَن حقيقة نفسِهِ.

وهل كان قول مَن قال من المنافقين في رسولِ الله ﷺ: ﴿**هُوَ أُذُنٌ**﴾ [التوبة:٦١]. يريدون: «**من قال له شيئًا صدَّقَه فينا، وَمَنْ حَدَّثَهُ صَدَّقَهُ، فإذا جئناه وحَلَفْنَا له صَدَّقَنَا**».

هل كان هذا القولُ يصدُرُ عن غيرِ نفسٍ تَشبَّعَتْ بنفاقها، وتَشبَّثَتْ بكفرِهَا حتَّى نَضَحَ هذا القولُ على لسانها؟!

وانظر إلى دفع الله ﷻ عن نبيه ﷺ فإنه لـم ينفِ سبحانه كلمتهم، وإنما نفى قصدهم، ووجه الكلمة: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ وجهَتَهَا التي هي حَقٌّ، فقالَ سبحانه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: هو أُذُنُ خير يعرفُ الصادقَ من الكاذبِ، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويُصَدِّقُ المؤمنين، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾؛ أي: وهو حُجَّةٌ على الكافرين، ثمَّ بَيَّنَ جزاءَ الذين يؤذون النبيَّ ﷺ، ويقولون فيه ما ليس إليه من سبيل فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [براءة:٦١].

فليست (الكلمةُ) إلا تعبيرًا عن (موقفِ) القلبِ، وبيانًا لحالةِ الروحِ، وإعرابًا عن ذات الضميرِ.

وقديمًا كان المنافقون يأتون النبيَّ ﷺ، فيشهدون بين يديه أنَّهم صدَّقوا وآمنوا، وقلوبُهُم منكِرةٌ مُكَذِّبَةٌ، فيقولون كلامًا لا تصدِّقُهُ شواهدُ أخبارِهم، ولا ينطَبِقُ على واقعِ حالهِم، ويقولُ ربُّ العالمين فيهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مُخبِرَةٍ أنَّه رسولُ الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. ثمَّ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقًا للخارجِ، لأنَّهم لـم يكونوا يعتقدون صحَّةَ ما يقولون ولا صِدقَه، ولهذا كذَّبهم بالنسبةِ إلى اعتقادِهم».

فهؤلاء المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، لأنَّهم يقولون كلامًا ظَاهِرُهُ حقٌّ وصِدقٌ، وليس في قلوبهم إلا التكذيبُ والشَّكُّ، وهم في حقيقة الأمرِ لا يَعْنُونَ معنى ما يقولون، ومن هنا انطبقَ نفاقُ قلوبِهم على مُرَادِهم من كلامِهِم، وثبتَ أنَّ الكلام إنَّما يعبِّرُ عن القلبِ لا عن غيرِهِ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

* * *

وقد ضَرَبَ الله ﷻ المثَلَ في كتابِهِ العزيز للكلمةِ الطيبةِ والكلمةِ الخبيثة؛ فالكلمةُ الطيبةُ كالشجرة الطيبةِ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ، تُؤتي أُكُلَهَا كلَّ حين بإذنِ ربِّها، والكلمةُ الخبيثةُ كالشجرةِ الخبيثةِ اجتثَّت من فوقِ الأرضِ ما لها من قرارٍ.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٧].

قال الشيخُ السَّعْديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: وهي شهادةُ أنَّ لا إله إلَّا الله وفروعها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: وهي النخلةُ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: في الأرضِ، ﴿وَفَرْعُهَا﴾: منتشِرٌ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: وهي كثيرة النفع دائمًا.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾؛ أي: ثمرتها، ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾: فكذلك شجرةُ الإيمان أصلُهَا ثابتٌ في قلبِ المؤمنِ علمًا واعتقادًا، وفرعُهَا من الكلمِ الطيبِ والعملِ الصالحِ والأخلاقِ المرضيَّةِ والآدابِ الحسنةِ في السماءِ دائمًا، يصعَدُ إلى الله منه من الأعمالِ والأقوالِ التي تخرجُهَا شجرةُ الإيمان، ما ينتفعُ به المؤمنُ وينتفعُ به غيره، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: ما أمرهم به ونهاهم عنه؛ فإنَّ في ضربِ الأمثالِ تقريبًا للمعاني المعقولةِ من الأمثالِ المحسوسةِ، ويتبيَّن المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتَّضحُ غايةَ الوضوحِ، وهذا من رحمتِهِ وحُسنِ تعليمه، فلله أتمُّ الحمدِ وأكملُهُ وأعمُّهُ.

فهذه صفةُ كلمةِ التوحيدِ، وثباتها في قلبِ المؤمنِ.

ثم ذكر ضدَّها، وهي كلمةُ الكفر وفروعها، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: المأكلِ والمطعم، وهي شجرةُ الحنظلِ ونحوها. ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾: هذه الشجرةُ ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: أي: من ثبوتٍ، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تُنتجُهَا،

بل إن وُجِدَ فيها ثمرةٌ فهي ثمرةٌ خبيثةٌ، كذلك كلمةُ الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوتٌ نافعٌ في القلب، ولا تثمر إلَّا كلَّ قولٍ خبيثٍ وعملٍ خبيث يستضر به صاحبه ولا ينتفع، ولا يصعد إلى الله منه عملٌ صالحٌ، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾: يخبر تعالى أنه يثبت عبادَهُ المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبيِّ التامِّ، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله: في الحياة الدنيا عند ورِدِ الشبهاتِ بالهدايةِ إلى اليقين، وعند عروضِ الشهوات بالإرادة الجازمةِ على تقديمِ ما يحبه الله على هوى النفسِ ومرادِهَا، وفي الآخرة عند الموتِ بالثبات على الدينِ الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكينِ للجوابِ الصحيحِ إذا قيل للميِّت: مَنْ ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَنْ نبيُّكَ؟[1] هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمنُ: اللهُ ربي، والإسلامُ ديني، ومحمدٌ نبيِّي، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم».

وقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ قَدْرَ الكلمةِ الطيبةِ والكلمةِ الخبيثةِ، فقال ﷺ: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن رِضوَانِ الله، لا يُلقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن سَخطِ الله، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهوِي بِهَا في جَهَنَّمَ**». أخرجه البخاري.

وقال ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيَنَ المَشرِق والمغْرِبِ**». متفقٌ عليه.

قال النوويُّ رحمه الله: «معنى: «**يَتَبَيَّنُ**»: يفكِّر أنها خيرٌ أم لا».

وقال الحافظُ رحمه الله **في (الفتح)**: «قوله: «**ما يَتَبَيَّنُ فيها**»، أي: لا يتطلَّب معناها، أي: لا يُثْبِتُهَا بفكرِهِ، ولا يتأمَّلُهَا حتى يَتَثَبَّتَ فيها، فلا يقولُها إلا إن ظهرت المصلحةُ في القولِ».

---

(١) حديث البراء بن عازبٍ. أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبيُّ والألبانيُّ.

وعن بلال بن الحارثِ المُزَنِيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن رِضْوَانِ الله تَعالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أن تَبْلُغَ مَا بَلَغتْ، يَكْتُبُ الله لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَومِ يَلْقَاهُ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن سَخطِ الله مَا كَانَ يَظُنُّ أن تَبْلُغَ مَا بَلَغَت يَكْتُبُ الله لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوم يَلْقَاهُ**».

أخرجه مالكٌ في «الموطَّأ»، والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وأحمد، وابن ماجه، وصحَّحه الالبانيُّ.

وفي هذه الأحاديث بيانٌ شَافٍ لشأنِ الكلمةِ، وأين تبلغُ بصاحبها من درجاتِ الرضوانِ في الجِنَانِ إن كانت طَيِّبَةً، وكيف تهوِي بقائلها دَرَكَاتٍ في الشَّقَاءِ والنَّارِ إن كانت غيرَ طَيِّبَةٍ.

وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ الكريمِ أنَّ ألفاظَ العبادِ محصاةٌ عليهم، لا يندُّ منها عن الإحصاءِ لفظٌ، فقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

أي: ما يلفظُ العبدُ من قولٍ إلا ولديه مَلَكٌ يرقُبُه، عتيدٌ؛ أي: حاضرٌ معه لا يغيبُ عنه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿مَّا يَلْفِظُ﴾. أي: ابن آدم: ﴿مِن قَوْلٍ﴾؛ أي: ما يتكلَّمُ بكلمةٍ، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. أي: إلا ولها مَن يرقبها مُعدٌّ لذلك يكتبها؛ لا يتركُ كلمةً ولا حركةً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وقد اختلفَ العلماءُ على قولين: هل يكتبُ الملَكُ كلَّ شيءٍ من الكلامِ، وهو قولُ الحسنِ وقتادة؟ أم يكتبُ ما فيه ثوابٌ وعقابٌ، كما هو قولُ ابن عباس رضي الله عنهما؟ وظاهرُ الآيةِ الأولُ لعمومِ قولِهِ -تبارك وتعالى-: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾».

❊ ❊ ❊

خطر اللسان

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّه ينبغي لكلِّ مكلَّفٍ أن يحفظَ لسانَه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحةُ، ومتى استوى الكلامُ وتركه في المصلحةِ، فالسنَّةُ الإمساكُ عنه؛ لأنَّه قد ينجرُّ الكلامُ المباحُ إلى حرامٍ أو مكروهٍ، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامةُ لا يعدلُهَا شيءٌ».

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**مَن كَانَ يُؤمِنُ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيَقُل خَيرًا أو لِيَصْمُتْ**». متفقٌ عليه.

وهذا الحديثُ صريحٌ في أنَّه ينبغي ألا يتكلَّم إلا إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شكَّ في ظهور المصلحةِ فلا يتكلَّمُ».

وقد جعلَ النبيُّ ﷺ حفظَ اللسانِ مع حفظِ الفَرجِ جوازًا إلى الجنَّةِ ونجاةً من النَّارِ، فَمَن ضَمِنَ اللسانَ والفَرجَ ضَمِنَ له النبيُّ ﷺ الجنَّةَ؛ قال ﷺ: «**مَن يَضمن لي ما بَينَ لَـحْيَيهِ ومَا بينَ رِجلَيهِ، أضمَن لَهُ الجنَّةَ**». رواه البخاري.

قال الحافظ: «الضَّمانُ بمعنى الوفاء بتركِ المعصيةِ، فأطلق الضَّمانَ وأرادَ لازمه، وهو أداءُ الحقِّ الذي عليه، فالمعنى: مَن أدَّى الحقَّ الذي على لسانِهِ من النطقِ بما يجبُ عليه، أو الصَّمتِ عمَّا لا يعنيه، وأدَّى الحقَّ الذي على فرجِهِ من وضعِهِ في الحلال وكَفِّهِ عن الحرامِ.

وقوله: «**لَـحْيَيهِ**» هما العظمان في جانبي الفمِّ، والمرادُ بما بينهما: اللسانُ وما يتأتَّى به النُّطْقُ، وبما بين الرِّجلَين: الفَرجُ».

وفي بيانِ أنَّ اللسانَ قائدُ الأعضاءِ في الاستقامةِ والاعوجاجِ، أخبر النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه: «إذَا أصبَحَ ابنُ آدمَ فَإنَّ الأعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ

اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ الله فِينَا، فَإِنَّمَا نَحنُ بِكَ، فَإِنِ استَقَمتَ استَقَمنَا، وإِنِ اعوجَجتَ اعوَجَجْنَا». رواه الترمذيُّ، وابن خزيمة وصححه، وكذا صحَّحه الألبانِّي.

وتكفيرُ الأعضاءِ للِّسَانِ كنايةٌ عن تنزيل الأعضاءِ اللِّسَانَ مَنزِلَةَ الكافِرِ بالنِّعَم.

وقد جعلَ النبيُّ ﷺ اللسانَ أخوفَ ما يخافُ على سفيانَ بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، فقد قالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ الله، حَدِّثني بِأمرٍ أعتَصِمُ بهِ، قَالَ: «**قُل: رَبِّيَ الله ثُمَّ استَقِم**». قلتُ: يا رَسُولَ الله، مَا أخوَفُ مَا تَخافُ عَلَيَّ؟ فَأخذَ بِلِسَانِ نَفسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا**».رواه الترمذي، وقال: حسن صحيحٌ، وابن ماجه، وصحَّحه الألبانيُّ.

وأوَّل مذكورٍ ذكره النبيُّ ﷺ لعقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه في بيانِ النَّجَاةِ هو: «**أمسِك عَلَيكَ لِسَانَكَ**».

فعن عقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه قال: قُلتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «**أمسِك عَلَيكَ لِسَانَكَ، وَليَسَعكَ بَيتُكَ، وابكِ على خَطِيئَتِكَ**». رواه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ، وصحَّحه الألبانيُّ.

وفي حديث معاذٍ رضي الله عنه: جَعَلَ النبيُّ ﷺ كَفَّ المرءِ لسانه مِلاكَ الأمورِ العظيمةِ التي ذكرها لمعاذٍ رضي الله عنه، ثمَّ بيَّنَ ﷺ أنَّه لا يَكُبُّ النَّاس في النَّار إلا حصائدُ ألسنتهم.

عن معاذٍ رضي الله عنه قال: كُنتُ مَعَ النَّبِي ﷺ في سَفَرٍ، فأصبَحتُ يومًا قَرِيبًا مِنهُ، ونَحنُ نَسِيرُ، فقُلتُ: يَا رَسُولَ الله، أخبرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُني مِنَ النَّارِ، قَالَ: «**لَقَد سَألتَ عَن عَظِيم، وإِنَّهُ لَيَسيرٌ علَى مَن يَسَّرَهُ الله عَلَيهِ: تَعبدُ الله لا تُشرِكُ بِهِ شَيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضانَ، وتَحُجُّ البَيتَ**». ثُمَّ قَالَ: «**ألا أدُلُّك عَلَى أبوَابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخَطيئَةَ كَمَا يُطفِئُ الماءُ النَّارَ، وصَلاةُ الرَّجُلِ مِن جَوفِ اللَّيلِ**». ثُمَّ تَلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[1] حتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

(١) سورة السجدة: وتمامها: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

ثُمَّ قالَ: «ألا أُخبِرُكَ بِرَأسِ الأمرِ وعَمُودِهِ، وذِروَةِ سَنَامِهِ؟». قُلتُ: بَلَى يا رسُولَ الله، قَالَ: «**رَأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وذِروَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ**». ثُمَّ قَال: «**ألا أُخبِرُكَ بِملاكِ ذَلِكَ كُلِّه؟**». قُلتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، فَأَخَذ بِلِسَانِهِ وقَال: «**كُفَّ عَليكَ هَذَا**». قُلتُ: يَا رَسُولَ الله، وإِنَّا لَمُؤاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم إلا حَصَائِدُ ألسنَتِهِم؟**». رواه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وابن ماجه، وصحَّحه الألبانيُّ.

وقولُهُ ﷺ: «**بِمِلاَكِ**» أي: بما يملكُ به الإنسانُ ذلك كلَّه، بحيث يسهل عليه جميعُ ما ذُكر، وقولُه: «**يَكُبُّ**» من كَبَّهُ إذا صرعه، «وحصَائِدُ ألسنَتِهِم» بمعنى: محصوداتهم، على تشبيه ما يتكلَّمُ به الإنسانُ بالزرعِ المحصودِ بالمنجلِ، فكما أنَّ المنجلَ يقطع من غير تمييزٍ بين رَطبٍ ويابسٍ وجيدٍ ورديءٍ، كذلك لسانُ المكثارِ، يتكلَّمُ بكلِّ فَنٍّ من الكلامِ، من غير تمييزٍ بين ما يَحسُنُ وما يقبح.

انظر: صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٣٥٩).

وفي إعراض المرءِ عمَّا لايعنيه سَمْتٌ حَسَنٌ، وعلامةٌ من علامات حُسنِ الإسلامِ، كما أخبر أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مِن حُسنِ إِسلامِ المَرءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعنِيهِ**». أخرجه الترمذيُّ، وابن ماجه، وصحَّحه الألبانيُّ.

قالَ ابنُ قدامة في مختصر منهاج القاصدين: «فَمَن عَرَفَ قَدرَ زمانِهِ، وأنَّه رأسُ مالِهِ، لـم ينفقه إلا في فائدةٍ، وهذه المعرفةُ تُوجب حَبسَ اللسانِ عن الكلامِ فيما لا يعني، لأنَّه مَن تَرَكَ ذكرَ الله تعالى واشتغل بما لا يعنيه، كان كَمَن قَدرَ على أخذِ جوهرةٍ، فأخَذَ عِوَضَهَا مَدَرَةً[1]، وهذا من خسرانِ العمرِ». اهـ

وفي إنفاقِ العمرِ في غير فائدةٍ ضَيَاعٌ أيُّ ضياعٍ، هذا إذا ذَهَبَ لا لَهُ ولا عليه،

(١) المَدَرَةُ: القطعةُ من الطِّينِ اللَّزِجِ المتماسِكِ.

فكيف إذا كانت المؤاخذةُ عليه؟! فكيف إذا كانت المؤاخذةُ على ما لا يرى به المرءُ بأسًا، وهو بأسٌ أيُّ بأسٍ؟! ولا يصلُ الأمرُ إلى هذه الدرجةِ إلا بانعدامِ التقديرِ، ولا ينعدمُ تقديرُ العواقبِ في الكلامِ إلا بالإغراق فيه إغراقًا يُغَيِّبُ العقلَ، أو يكاد يُغَيِّبُهُ، فلا يُحسِنُ عند ذلك تقديرَ عواقبِ الأمورِ.

عن أبي هريرة ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ الرَّجُلَ ليَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لا يَرَى بهَا بَأسًا، يَهوِي بِهَا سَبعينَ خَرِيفًا في النَّارِ**». أخرجه الترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيحٌ، وابن ماجه، وصحَّحه الألبانيُّ.

فانظر -هداني الله وإياك- إلى قوله ﷺ: «**لاَ يَرَى بِهَا بَأْسًا**». وتأمَّل جيدًا، أسألُ الله أن يعفو عنِّي وعنك.

❊ ❊ ❊

ثمَّ إنَّ آفاتِ الكلامِ ما تزال تهبطُ في دركاتِ الباطلِ حتى تستويَ على حَمأَةِ (القَولِ عَلَى الله بِلاَ عِلمٍ).

ولم يُبِح الله تعالى لأحدٍ أن يتقوَّلَ عليه، ولا أن يُسنِدَ له ما لـم يَقُلْهُ، بل قال عن صَفيِّهِ وخليله محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

وحَرَّمَ الله ﷻ القولَ عليه بلا علمٍ تحريمًا صريحًا، فقال بعد أن بَيَّنَ أنواعَ المحرماتِ، وبعضُها أغلظُ من بعضٍ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مدارج السالكين»: «القولُ على الله بلا علم هو أشدُّ هذه المحرماتِ تحريمًا وأعظمُهَا إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتبةِ الرابعةِ من المحرماتِ التي اتَّفقت عليها الشرائعُ والأديانُ، ولا تُباح بحالٍ، بل لا تكون إلا مُحَرَّمَةً، وليست كالميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ الذي يُباح في حالٍ دون حالٍ.

وليس في أجناس المحرمات أعظمُ عند الله منه -أي: من القول على الله بلا علم- ولا أشدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّركِ والكفرِ، وعليه أُسِّستِ البدعُ والضلالاتُ، فكلُّ بدعةٍ مضلةٍ في الدين أساسُها القولُ على الله بلا علم». اهـ

وقال ابن القيم عن آية (الأعراف) السابقةِ في «إعلام الموقعين»: «رتَّبَ الله المحرماتِ أربعَ مراتب، وبدأ بأسهلها، وهو الفواحشُ، ثمَّ ثنَّى بما هو أشدُ تحريمًا منه وهو الإثمُ والظلمُ، ثمَّ ثَلَّثَ بما هو أعظمُ تحريمًا منهما وهو الشِّركُ به سبحانه، ثمَّ رَبَّعَ بما هو أشدُّ تحريمًا من ذلك كلِّه وهو القولُ على الله بلا علمٍ، وهذا يعمُّ القولَ عليه سبحانه بلا علمٍ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، وفي دينِهِ وشرعِهِ». اهـ

ومَن أرادَ مزيدَ تفصيلٍ عن آفةِ القولِ على الله بلا علمٍ، فلينظر كتابنا «آفات العلم»، ففيه مزيدُ بيانٍ لذلك، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

❊ ❊ ❊

وفي الميثاق الذي أخذ الله تعالى على بني إسرائيلَ قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. أي: كلِّموهم طَيِّبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ بالمعروفِ، كما قالَ الحسنُ البصريُّ في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. فالحسنُ من القولِ: يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ، ويحلُمُ ويعفو ويصفحُ، ويقولُ للناسِ حُسنًا كما قال الله، وهو كلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ الله». اهـ

وبيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ القولَ الطيبَ الحسَنَ لا يذهبُ سُدًى، ولا يضيعُ بَدَدًا، بل صاحبُهُ مأجورٌ عليه مثابٌ على قولِهِ، ففي الحديث المتفق عليه: «**والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**».

والقولُ السَّدِيدُ ممَّا حضَّ القرآنُ على الالتزام بِهِ، فقال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى آمرًا عبادَهُ المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادةَ مَن كأنَّه يراه، وأن يقولوا قَولاً سَدِيدًا، أي: مستقيمًا لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يُصلحَ لهم أعمالَهُم، أي يوفِّقَهم للأعمالِ الصالحةِ، وأن يغفرَ لهم الذنوبَ الماضيةَ، وما قد يقعُ منهم في المستقبل يُلهِمُهُمُ التَّوبَةَ منها.

قال عكرمةُ: القولُ السديدُ: لا إله إلا الله، وقالَ غيرهُ: السَّديدُ: الصِّدقُ، وقال مجاهدٌ: هو السَّدَادُ، وقالَ غيرُهُ: هو الصَّوَابُ، والكلُّ حَقٌّ». اهـ

ثُمَّ رَجَعَ الكلامُ بنا إلى أهمية (الكلمة)، وأنَّها تعبيرٌ عن (موقفِ) القلبِ وَوِجْهَتِهِ، وإعرابٌ عن سِرِّ الفؤادِ ومكنونِ نيَّتِهِ.

وشاهدُ ذلك أنَّك ترى في كتابِ الله عَزَّ وَجَلَّ إنكارًا على الذين يقولون ما لا يفعلون، لأنَّ (الكلامَ) في هذه الحالةِ ليس له رصيدٌ من واقعٍ عمليٍّ يُصَدِّقُهُ ويدلُّ عليه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَمَلَ الجمهورُ الآيةَ على أنَّها نزلت حين تَمَنَّوا فرضيَّةَ الجهادِ عليهم، فلمَّا فُرِضَ نَكَلَ عنه بعضُهم. ومنهم مَن يقولُ: أُنزلت في شأنِ القتالِ، يقولُ الرجلُ: قاتلتُ ولـم يُقاتل، وطعنتُ ولـم يطعن، وضربتُ ولـم يضرب، وصبرتُ ولـم يصبر.

وقال قتادةُ والضَّحَّاكُ: نزلت توبيخًا لقومٍ كانوا يقولون: قَتَلنَا وضَرَبنَا وطَعَنَّا وفَعَلْنَا، ولـم يكونوا فعلوا ذلك.

وقال ابنُ زيدٍ: نزلت في قومٍ من المنافقين كانوا يَعِدُونَ المسلمين النَّصرَ ولا يَفُونَ لهم بذلك».

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّه يبقى للأمَّةِ عمومُ إنكارِ اللَّفظِ في قولِ رَبِّنَا سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقد أنكر الله ﷻ على أهلِ الكتابِ أنَّهم يأمرون النَّاسَ بالبرِّ ولا يأتمرون في أنفسهم بما يأمرون النَّاسَ به، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالى: كيف يليقُ بكم يا معشرَ أهلِ الكتابِ وأنتم تأمرون النَّاسَ بالبرِّ وهو جماعُ الخيرِ، أن تَنْسَوا أنفسَكُم فلا تأتمرون بما تأمرون النَّاسَ به، وأنتم مع ذلك تَتلُونَ الكتابَ، وتعلَمون ما فيه على مَن قَصَّرَ في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا من عَمَايتكم؟».

وقد ذمَّهم الله على هذا الصنيعِ، ونبَّههم على خطئهم في حقِّ أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخيرِ ولا يفعلونه، وليس المرادُ ذمَّهم على أمرِهم بالبِرِّ مع تركهم له، بل على تركهم له، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ معروفٌ، وهو واجبٌ على العالمِ، ولكنَّ الواجبَ والأولى بالعالمِ أن يفعلَه مع مَن أمرهم به، ولا يتخلَّفَ عنهم، كما قال شعيبٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

فكلٌّ من الأمرِ بالمعروفِ، وفعلِهِ، واجبٌ لا يسقطُ أحدُهُمَا بتركِ الآخرِ على أصحِّ قَولَي العلماءِ من السَّلَفِ والخَلَفِ، وذهبَ بعضهم إلى أنَّ مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيفٌ، وأضعفُ منه تمسُّكُهم بهذه الآية، فإنَّه لا حُجَّةَ لهم فيها، والصحيحُ: أنَّ العالِمَ يأمرُ بالمعروفِ وإن لـم يفعله، وينهى عن المنكرِ وإن ارتكبه.

قال مالكٌ عن ربيعةَ: سمعتُ سعيد بن جبيرٍ يقول: لو كان المرءُ لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكرِ حتى لا يكونَ فيه شيءٌ ما أمر أحدٌ بمعروفٍ ولا نهى عن منكرٍ. قال مالكٌ: وصدَقَ، مَن الذي ليس فيه شيءٌ؟!

قال ابن كثيرٍ: «ولكنَّه والحالةُ هذه مذمومٌ على ترك الطاعةِ وفعلِ المعصيةِ، لعلمِهِ بها ومخالفتِهِ على بصيرةٍ، فإنَّه ليس مَن يعلمُ كمن لا يعلم».

وتخلُّفُ الحالِ عن المقالِ مثالٌ لخلوِّ (الكلمةِ) من رصيدها من (العمل)، وعليه عقابٌ شديدٌ، وعذابٌ أليمٌ.

ففي «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَومَ القيَامَةِ، فَيُلقَى فِي النَّارِ، فَتَندلِقُ أقتَابُهُ**(١) **فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَتَجْتَمِعُ أهلُ النَّارِ عليهِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَستَ كُنتَ تَأمُرُ بالمعروفِ، وتَنهَى عن المنكَرِ؟ فَيَقُولُ: نَعَم، كُنتُ آمُرُكُم بِالمعرُوفِ ولا آتيهِ، وأنهَاكُم عَنِ الشَّرِّ وآتيهِ**».

وفي حديثِ أنس رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَرَرتُ ليلةَ أُسريَ بِي بِأقوَامٍ تُقرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقَارِيضَ مِن نَارٍ، قُلتُ: مَن هَؤلاءِ يَا جِبريلُ؟ قَالَ: خُطَبَاءُ أُمَّتِكِ الذين يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ**». رواه ابن أبي الدنيا، وابن حبان، والبيهقيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ.

ولعلَّ من أدلِّ ما يدلُّ على قيمةِ (الكَلِمةِ) في الإسلامِ ذلك الجزءُ من حديث (المنامِ) الطويلِ الذي بيَّنَ فيه جبريلُ للنبيِّ ﷺ جزاءَ الرجل يكذبُ الكذبةَ فتطيرُ كلَّ مطارٍ، وتسيرُ كلَّ مسارٍ، ويظنُّ المسكينُ أنَّه بمنأًى من عذاب الله عز وجل، وأنَّ (الكلمة) لا قيمةَ لها ولا وزنَ، وهي في الميزانِ أثقلُ من كثيرٍ من الذنوبِ والآثام.

أخرج البخاريُّ في «صحيحه» عن سَمُرَةَ بن جندبٍ، قال: كَانَ النَّبيُّ إذَا صَلَّى صَلاةً أقبَلَ عَلَينَا بِوَجهِهِ، فَقَالَ: «**مَن رَأى مِنكُمُ الليلةَ رُؤيَا؟**» قالَ: فإنِ رَأى أحدٌ قَصَّهَا، فَيقُولُ مَا شَاءَ الله، فسألَنَا يومًا فَقَالَ: «**هَل رَأى أحَدٌ مِنكُم رُؤيَا؟**». قُلْنَا: لاَ. قَالَ: «**لَكِنِّي رَأيتُ اللَّيلَةَ رَجُلَينِ أتيَانِي، فَأخَذَا بيَدي فَأخرَجَانِي إلَى الأرضِ المقُدَّسَةِ، فَإذَا**

(١) **أقتابُهُ**: أمعاؤه.

رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُّوبٌ من حَديدٍ». قَالَ بَعْضُ أصحَابِنَا[١]: عَن مُوسَى ابن إسمَاعيلَ[٢]: «كَلُّوبٌ مِن حَديدٍ يُدخِلُهُ فِي شِدقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُهُ بشِدقِهِ الآخرِ مَثلَ ذَلِكَ، ويَلتَئِمُ شِدقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصنَعُ مِثلَهُ، قُلتُ: مَا هَذَا؟ قَالا: انطَلِق».

ثمَّ تعدَّدت المرائي، وجَاءَ التأويلُ، قالﷺ: «قُلتُ: طَوَّفتُمَانِي اللَّيلَةَ فَأخبرَانِي عَمَّا رَأيتُ. قالاَ: نَعَم، أمَّا الَّذِي رَأيتَهُ يُشَقُّ شِدقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذبَةِ فَتُحمَلُ عَنهُ حَتَّى تَبلُغَ الآفاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ مَا رَأيتَ إلَى يومِ القيَامَةِ».

فانظر -هُديتَ- إلى هذا العذابِ كيف تناولَ من الكذَّابِ آلةَ كذبِهِ، وموضعَ إفكهِ، وكيف يُشَقُّ شدقُهُ إلى قفاه بكلُّوبٍ[٣] من حديدٍ، ثمَّ يُثَنَّى بالآخرِ، فيلتئمُ الأولُ، فيُعاد عليه بالشَّقِّ كما صُنِعَ بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ، وهكذا إلى يومِ القيامةِ.

وفي رواية للبخاري: «فَأَتَينَا عَلَى رَجُلٍ مُستَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذَا آخرُ قَائمٌ عَلَيهِ بِكَلُّوبٍ مِن حَديدٍ، وإذَا هُوَ يأَتِي أحَدَ شِقَّي وَجهِهِ، فَيُشَرشِرُ[٤] شِدقَهُ إلَى قَفاهُ، ومَنخِرَهُ إلى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إلى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّلِ، فَمَا يَفرُغُ مِن ذِلكَ الجَانبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ، فَيَفْعَلُ مِثلَ مَا فَعَلَ فِي المَرَّةِ الأولَى ». وفي تأويلها: «أمَّا الرَّجلُ الَّذي أتَيتَ عَلَيهِ يُشَرشَرُ شِدقُهُ إلَى قَفَاهُ وَمَنخِرُهُ إلَى قَفَاهُ وَعَينُهُ إلَى قَفَاهُ، فَإنَّهُ الرَّجُلُ يَغدُو مِن بَيتِهِ، فَيَكذِبُ الكَذِبَةَ تَبلُغُ الآفَاقَ».

اللَّهُمَّ غُفرًا، هذا جزاءُ مَن كذبَ الكذبةَ تُحملُ عنه حتى تبلغَ الآفاقَ، هذا جزاءُ ما

(١) أي: أصحابُ البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) هو: شيخ البخاري الذي روى عنه هذا الحديث، ولم يسمع منه هذه الجملة وإنما سمعها من بعض من سمعها من موسى، فاقتضت أمانتهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يسندها إليه ولم يسمعها منه.

(٣) الكَلُّوبُ: الحديدةُ يُنشَلُ بها اللحمُ، ويُعَلَّقُ.

(٤) يُشَرشِرُ: يُقَطِّعُ.

أتى، وكِفَاءُ ما صنعَ، فَمَن لا يَقدُرُ (الكلمةَ) بعد ذلك قَدرَهَا؟ ومَنْ لا يعرف (للكلمةِ) بعد ذلك شأنَهَا؟

اللَّهمَّ إنَّا نسألك أن تُطَهِّرَ ألسنَتَنا من الكذبِ، وأن تعصمَهَا من آفاتِ اللسانِ كلِّها، وأن تُنطقَهَا دومًا بذكرِكَ، وأن تشغلَها أبدًا بطاعتِكَ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أستغفرك وأتوبُ إليك.

وصلَّى الله على نَبيِّنَا محمدٍ وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وآخر دعوانَا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتب

أبو عبد الله محمد بن سعيد رسلان

عفا الله عنه وعن والديه

مصر - المنوفية - أشمون - سبك الأحد

الثلاثاء: ١٠ من محرم ١٤١١هـ

أول أغسطس ١٩٩٠ م